مجلة آفاق علمية
ISSN: 1112-9336
المجلد: 12 العدد: 02 السنة 2020
ص 106 - 124

تاريخ الإرسال: 2019/10/06 تاريخ القبول: 2019/12/01
تاريخ النشر : 2020/04/26

موقف الطرق الصوفية من الاستعمار الفرنسي في السنغال الطريقة المريدية أنموذجا (1895-1927)

the Sufi brotherhoods 's position to French colonialism in Senegal The Mouride 'model' (1927-1895)

عائشة بومدين
المركز الجامعي لتامنغست.– الجزائر . aichaboumadine@yahoo.com

الملخص:

أدى شيوخ الصوفية دورا مهما في نشر الإسلام في السنغال، وكان من أبرز الطرق التي عرفها السنغال الطريقة المريدية، وهي طريقة صوفية ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر على يد الشيخ أحمدو بامبا أحد أشهر العلماء الصوفيين في السنغال، متفرعة عن الطريقة القادرية، والتف حولها أعيان قبيلة الولوف التي تعتبر أكبر إثنية عرقية في السنغال و لقد دعا مؤسسها إلى التفاني في العمل خاصة الزراع، لذلك تحكمت هذه الطريقة في إنتاج الفول السوداني، الذي كان محصولا مهما إبان العهد الاستعماري، ولأنها طريقة مختلفة من حيث المنشأ والفكر عن بقية الطرق الصوفية في السنغال كان موقفها اتجاه الاستعمار مختلفا عن موقف الحركات الجهادية السابقة لها، فمثلت تيارا دينيا وفكريا جديد ومتميزا دون إهمال الجانب التصوفي، حيث أن أحمدو بامبا درس وفقه مريديه وحل الكثير من القضايا الفقهية السائدة في عصره، كما ترك المئات من المؤلفات الفقهية والعقائدية والصوف.

الكلمات المفتاحية: السنغال؛ المريدية ؛ أحمدو بامبا؛ التصوف؛ الاستعمار.

Abstract:

The Senegalese Muslim Brotherhood of the Mourides was founded by Amadou Bamba 1850-1927 It is known there is no clergy of priest in Islam God is Its founder fought colonialism1895 - 1912.Sheikh Ahmadou Bamba encouraged his followers to turn to God, in a sanctifying work, to better exceed the materialistic values of the world. He distanced himself from the jihadists, while fighting the colonial occupation when the French settled in force in Senegal

Keywords: Brotherhood ; the Mourides ; Amadou Bamba; Senegal. ; the colonialism

---

المؤلف المرسل: عائشة بومدين، **الإيميل:** aichaboumadine@yahoo.com

1 –مقدمة:

إن نهاية القرن التاسع عشر مثلت منعرجا مهما في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء ،حيث عرفت هذه المنطقة حملة استعمارية عشواء من أجل تقسيم مناطقها، فاشتعلت المقاومات في كل أرجائها وامتازت هذه المقاومات بالصيغة الدينية ،حاملة لواء الجهاد الإسلامي ،حيث أن أغلب مقدمي الطرق الصوفية لم يكونوا رجال دين فقط، بل كذلك كانوا قادة عسكريين أمثال الشيخ عمر طال التيجاني في السنغال، كذلك الشيخ ماء العينين القادري في موريتانيا والشيخ محمد المهدي في السودان، ومن أهم المناطق الإفريقية التي احتضنت الحركات الجهادية الإسلامية منطقة السنغال، حيث أنها عرفت عدة حركات مناهضة للاستعمار الفرنسي في معظمها كان يقودها شيوخ الطرق الصوفية، على غرار هؤلاء الشيخ أحمدو بامبا مؤسس الطريقة المريدية في السنغال، وسنحاول في هذه الورقة البحثية الإجابة عن

التساؤلات التالية: ما هي ظروف المجتمع السنغالي إبان تأسيس الطريقة المريدية؟ وما هو موقفها من الاحتلال الفرنسي للسنغال مابين (1885 – 1927)؟ وما هي مميزات جهاد أحمدو بامبا للاستعمار الفرنسي؟

2 –أوضاع المجتمع السنغالي إبان تأسيس المريدية

إن السنغال عرف كل الطرق الإسلامية سواء الوافدة كالقادرية والتيجانية، أم المحلية أي سنغالية المنشأ مثل اللاينيية وكذلك المريدية، التي تعتبر أحدث هذه الطرق ظهورا وظهرت بين أفراد قبيلة الولوف وهي من أكثر القبائل انتشار في المنطقة السنغالية ومؤسس الطريقة المريدية هو أحمدو بامبا[1]، أحد أشهر العلماء السنغاليين، الذين حملوا على عاتقهم نشر الإسلام بين قبائل الولوف ولم يكن هذا الشيخ داعية أو مجاهد كبقية الزعماء الدينين الذين عرفتهم المنطقة فحسب، بل هو كذلك من أبرز العلماء المسلمين الذين خلفوا للثقافة الإسلامية مؤلفات عديدة في علوم إسلامية متنوعة، كما أن الطريقة المريدية، لم تنشأ في وسط خال من الاضطرابات والقلاقل السياسية، حيث تعد هذه المرحلة من التاريخ السنغالي أكثر المراحل اضطرابا وهذه الظروف هي التي تمخضت عنها المبادئ الأساسية للطريقة المريدية، وشكلت المنحى الثقافي الذي نحاه الشيخ أحمدو بامبا، فقد كانت السنغال قبل مجيء الاستعمار مجزأة إلى مماليك وإمارات تحتفظ كل منها بكيانها السياسي المستقل، وهي الجولوف والفوتا تورو والباول والكايور، والوالو، والكازمنس، والسالوم، على غرار كل إفريقيا جنوب الصحراء،في القرن السابع عشر والثامن عشر[2].

ولقد طغى في هذا العهد على الساحة السنغالية مسألة الركض وراء السلطة، سواء كانت دينية أم سياسية حيث عرفت السنغال موجة من المباغتات والسطو على القرى والمدن من طرف الملوك والأمراء الأرستقراطيين الذين يعرفون بالتيدو أو السيدو Ceddo ، وكذلك بعض القادة الدينين الذين كانوا أحيانا يقومون

مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 12 العدد: 02 السنة 2020 ص 106 - 124

بمباغتات وحملات لزيادة ممتلكاتهم وتوطيد نفوذهم أو لتوسيع رقعة مملكتهم، ورغم وجود أسر عريقة وقديمة في توليها مقاليد الحكم في كل منطقة من مناطق البلاد، إلا أنه بين الفينة والأخرى تظهر على الساحة قوى داخلية أخرى متمردة تغير عليها، وتنازعها على السلطة.

وزاد الوضع تدهورا بعد الغزو الاستعماري للمنطقة، لذلك رافقت ظهور المريدية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر أي حوالي 1889[3] عدة تغيرات اجتماعية وسياسية واقتصادية، وقد أطلق الباحث الفرنسي جون كوبنس J.Copans على هذه المرحلة من تاريخ السنغال مرحلة التحول الراديكالي[4]، لأن هذه الفترة عرفت تطورات كثيرة بسبب الغزو الفرنسي، وبدأت الأنظمة التقليدية تتساقط، ويحل محلها تنظيمات جديدة سعت إلى مواكبة الظروف على غرار الطريقة المريدية؛ كان النفوذ الفرنسي في غرب إفريقيا يهدف إلى استقلال المنطقة المتسعة التي يمكن الوصول إليها عن طريق نهر السنغال، تأسست المراكز الفرنسية في بادئ الأمر عند مصب نهر السنغال في الثلاثينات من القرن السابع عشر.

وفي عام 1659، اختيرت جزيرة القديس سان لويس لتكون مركزا لقيادتهم وشيدا لفرنسيون فيها حصنا أنشئت من حوله مدينة سان لويس،وفي عام1677 تمكنت فرنسا من الاستيلاء على حصني "أرجوين" و"الجوري" الهولنديين، وقد أصبح حصن "أرجوين" في ذلك الوقت مركزا تجاريا هاما بينما تطور حصن "الجوري"، وأصبح قاعدة بحرية رئيسية لفرنسا في غرب إفريقيا، وقد استغل الفرنسيون هذين الحصنين للتوسع في السنغال خاصة، وغرب إفريقيا عام، كما اتجه الفرنسيون منذ سنة 1870 وما بعدها إلى فرض السيطرة على إفريقيا الغربية بأسرها ابتداء من السنغال إلى النيجر ثم إلى تشاد، مع ربط تلك المناطق بمراكزهم على الساحل

الغيني في ساحل العاج والداهومي، وحاربوا بواسطة الضباط المشاة مستعملين الغزو العسكري المباشر على عكس البريطانيين، الذين أبرموا معاهدات واتفاقيات مع شيوخ القبائل.

وقد تباينت ردود الفعل نحو الاستعمار الفرنسي، ما بين التحالف وبين المجابهة، والأسلوب الثاني هو الأكثر انتشارا في المنطقة، لأن الأغلبية كانت تدين بالدين الإسلامي، مما جعلها تحارب الاستعمار تحت راية الجهاد الإسلامي، أما في السنغال فإن حركة الغزو التي قادتها فرنسا منذ 1847 قد أسفرت عن قواعد عسكرية بعد ضم الكايور والوالو، ولكن فرنسا لم تحصل على هذه المكاسب إلا بعد مواجهة الحركات الجهادية[5]، أو ما يعرف بالإسلام العسكري، حيث عرفت السنغال وإفريقيا الغربية هذه الظاهرة كردة فعل على الجرائم الفرنسية، فرجل الدين أو المقدم أصبح رجل سياسة وحرب بتشجيع الفلول على الثورات من أمثال الشيخ الحاج عمر طال (1854–1861) في الفوتا شمال السنغال والمابا دياخو في السين سالوم (1861 –1867)[6]، ومامادو لمين درامي في أعالي السنغال (1885 – 1887)[7]، ولات ديور (1864–1986)، في الكايور [8].

إذن في هذه الفترة الملئية بالتغيرات السياسية والمواجهات بين القادة الإسلاميين والجيوش الفرنسية ظهرت المريدية كنموذج سلمي للإسلام السنغالي، لأنها مختلفة عن الطرق الصوفية الأخرى مثل التيجانية التي تبنت منذ البداية فكرة الجهاد المقدس ضد الاستعمار الفرنسي، لكن المريدية جعلت من فكرة الجهاد سلمية لا علاقة لها بحمل السلاح[9]؛ وإلى جانب كل هذه الظروف قد عانى الشعب السنغالي الأمرين من تجارة العبيد قبل الغزو الاستعماري[10]؛ فقد سيق مئات السنغاليين وبيعوا في أسواق النخاسة بأمريكا وأوربا؛ أما من الناحية الاجتماعية والثقافية، فقد ساد الجهل والسحر والشعوذة في المجتمع السنغالي آنذاك،

وعمل العلماء والشيوخ لصالح الملوك والأجانب الذين استخدموهم لأغراض مخالفة للدين الإسلامي من شعوذة وسحر وقضاء جائر، وتحول الدين إلى تقاليد وثنية مشوهة تمارس في مناسبات الزواج والاختتان والمأتم[11].

ويرى الباحث السنغالي مامادو ديوف " أن المريدية هي صورة جديدة للمجتمع الولوفي الغاضب على الحملات العسكرية الاستعمارية، ومن الصراعات على السلطة، ومن تجارة الرق التي عرفتها المنطقة وتبعتها سلسة من الأوبئة، والأمراض[12]"[13]؛ لذلك انضمت إلى أحمدو بامبا كل الفئات الاجتماعية الناقمة على الأوضاع في ذلك العهد منهم العبيد الذين عانوا من جور الطبقات الأرستقراطية، وحتى الأرستقراطيين والنبلاء الذين تيقنوا من فشل الأسلوب العسكري مع القوات الفرنسية، ووجدوا في المريدية البديل الجديد للأنظمة التقليدية القائمة على الجهاد المسلح [14].

بعد هذه النظرة التاريخية على الظروف المرافقة لنشأة الطريقة المريدية ندرك أن المجتمع السنغالي عرف في أواخر القرن التاسع عشر عدة تغيرات في جوانب مختلفة ،سياسيا واجتماعيا، وكان لابد من التغيير أو البحث عن البديل المناسب، ومن هنا ظهرت المريدية ردة فعل عن الأوضاع السائدة آنذاك، وظاهرة حلت محل الأرستقراطية التقليدية لتحتوي الفئات الكادحة في المجتمع السنغالي، فكانت أقرب إلى التنظيم الاقتصادي، ولكن بنكهة دينية صوفية.

3- موقف الطريقة المريدية من الاحتلال الفرنسي (1895- 1927)

3-1-المجابهة والمناهضة:

سافر الشيخ بامبا الى موريتانيا لانهاء تعليمه الديني على يد الشيخ سيديا الكبير، وبعد عودته اختار بامبا مكانا بعيدا عن لات ديور ملك الكايور الذي كان يواجه الفرنسيين بحثا عن العزلة والتأمل ليبدأ مشواره الدعوي والتعليمي، فاتجه إلى

امباكي– باول القرية التي أسسها جده لكنه لم يتوقف فيها، بل استقر في مكان ليس ببعيد عنها في الأدغال، وأسس تجمعا صغيرا أسماه (دار المرنان)، وانضم إليه فيها تلاميذ والده القدامى وإخوانه، في وسط هذا التجمع الصغير، بدأ بامبا يلقن أتباعه القرآن الكريم والعلوم الدينية، وبعد وفاة لات ديور في ديخلي سنة 1986، انضم إليه محاربيه القدامى (التيدو) الفارين من القوات الفرنسية حتى فلاحي الكايور[15]، ويرى المؤرخ الأمريكي دونال كروز أوبراين أن المريدية ضمت كل الفئات الاجتماعية للمجتمع الولوفي، خاصة الطبقات الدنيا، التي التفت حول المريدية كطبقة العبيد وطبقة الحرفين[16]، ورأت في الشيخ أحمدو بامبا المخلص والمنقذ من أنواع الظلم التي عرفتها هذه الفئات على يد الأرستقراطية الحاكمة. وبعد فترة قرر أحمدو بامبا البحث عن مكان أخر ،يكون مركز لدعوته ،فأختار منطقة تقع بين مقاطعتي الباول والجولوف، وأسس بها سنة 1987، قرية أسماها توبة[17] تبعد حوالي 150 كيلومتر عن العاصمة دكار، وقد أصبحت المدينة المقدسة للطريقة المريدية فيما بعد[18]. وكانت المنطقة التي أسس فيها الشيخ بامبا قريته قاحلة خالية من الماء، و لم يكن من الممكن أن يقيم فيها سوى من يريد العزلة لعبادة الله، ولذا يقول الشيخ بامبا: " إن سبب محبتي بتوبة ودار السلام أكثر من غيرهما يكمن في صدق الإرادة التي دفعتني إلى بنائهما، ما رجعت فيهما لأصل سابق ولا لارتياد مزرع ولا مرعى، وإنما لعبادة الله وحده بإذن من تعالى واختيار"[19] .

ومدينة توبة في يومنا هذا تستقبل زهاء مليون نسمة كل سنة بمناسبة الاحتفال بليلة 17 صفر ذكرى نفي الشيخ بامبا إلى الغابون، وتدوم الاحتفالات ثلاثة أيام، وتدور كلها حول المسجد الجامع، حيث ضريح مؤسس المريدية[20]؛ ويرى بول مارتي أن استقرار الشيخ في توبة التي تقع في أرياف الفيرلو السفلى بين الجولوف والكايور والباول وعلى حدود نهر السنغال وغامبيا، هذه النقطة الجغرافية

سهلت أن تكون مركز تجمع معادي للسلطة الفرنسية، لذلك قامت الإدارة بمراقبة بامبا وأتباعه، كذلك اشتكت منه العائلات التي انظم أبناءها إليه سنة 1889، واشتكى بعض الزعماء للحاكم الفرنسي كليمان توماس Clément Thomas–حسب رأي بول مارتي– لذلك حاول تهدئة الأمور والمصالحة بين بامبا والشاكين عليه والمصالحة بينهم، وطلب من الشيخ أن يرسل الطلبة إلى الإدارة الفرنسية، وعرض عليه الكتب المقدسة كرمز للصداقة، لكن هذا الأمر لم يجد نفعا مع أحمدو بامبا الذي بعث رسالة إلى الحاكم العام الفرنسي في نفس السنة " لا أحتاج شئ من هذا العالم التافه الفاني"[21]، كانت هذه الكلمات هي بداية اضطراب العلاقة بين الفرنسيين وبامبا، ولكن يبقى هذا الحكم هو لأحد رجال الإدارة الفرنسية، لذلك لا يمكن الأخذ به كليا.

ولكن الخلاف بين الشيخ والسلطات الاستعمارية بدأ فعليا عندما قام حاكم منطقة نديمبور N'Diambour[22] بإرسال رسالة للحاكم العام قائلا فيها " يشرفني مراسلتك سيدي المقيم لأخبرك أني لاحظت قدوم الشيخ بامبا إلى الباول الغربي ،ويوجد عدد من الشيوخ الذين يزورونه ،وأنا لا أثق في هؤلاء الناس أخبرتكم لتسيطروا على الوضع في منطقتي "[23].

وفي هذه الفترة اتجه الشيخ مع خمسمائة طالب إلى الجولوف سنة 1895، واستقر هناك تحت حماية ملك الجولوف سامبا لاوبي، ومن هنا بدأت السلطات الفرنسية تراقب الشيخ أحمدو بامبا، كما انزعجت السلطات الفرنسية من تزايد انضمام محاربي وملوك الكايور والجولوف؛ أما بقية أمراء الجولوف، فقد تحالفوا مع الفرنسيين ضد الشيخ، وارتابت فرنسا من أن تكون حركته ذات طابع الحركات المهدية، التي تدعو إلى الجهاد المقدس ضد الكفار، لذلك قام حاكم سان لويس بكتابة رسالة إلى الحاكم العام الفرنسي في السنغال في 15 أوت 1895 مضمونها " كل قدامى

مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 12 العدد: 02 السنة 2020 ص 106 - 124

المحاربين في الكايور كل التيدو الذين يعيشون على الحرب والنصب اجتمعوا حول الشيخ المهدي لمحاربة البيض"[24].

ومن التهم التي وجهت لأحمدو بامبا هو شراء الأسلحة وعدم دفع الضرائب للفرنسيين بالإضافة إلى التحالف مع بوربا الجولوف سامبا لاوبي، والذي طلب من بامبا الانضمام إلى الطريقة المريدية، كل هذه الأمور مجتمعة جعلت فرنسا تتخوف من التزايد السريع لنفوذ الشيخ بين أتباعه ومؤيديه، لذلك أصدرت قرارا يقضي بنفيه إلى الغابون في سبتمبر 1995، وقضى بها مدة ثمان سنوات(1895–1902)[25]؛ ويرى محمد غالاي أنجاي أن نفي بامبا من طرف السلطات الفرنسية هو بالدرجة الأولى بسب تخوف السلطات الاستعمارية من أن تكون هذه الحركة مثل الحركات الجهادية السابقة لها، والتي كانت بمثابة حجرة عثرة في سبيل الإيديولوجية الاستلابية الاستعمارية[26].

وفي فترة نفي مؤسس المريدية لم تختف المريدية، بل بقي أتباعها في السنغال ينتظرون عودة شيخهم وفي سنة 1902، توسط الشيخ بابا سيديا الموريتاني للشيخ بامبا لدى الإدارة الفرنسية، وقام بكفله لذلك أصدرت الإدارة الفرنسية قرارا سنة 1902 ينص على رجوع الشيخ إلى السنغال[27]؛ وبعد عودته من المنفى تقاطرت عليه وفود الزوار من كل حدب وصوب، وازدادت مكانته بين أتباعه، لأنه وقف في وجه الاستعمار، ومن هنا بدأت فرنسا تتخوف من زيادة نفوذه، فواصلت مراقبته والضغط عليه.

وما زاد من غضب فرنسا هي الرسالة التي أرسلها الشيخ سنة 1903 إلى حاكم مقاطعة أندر(سان لويس)، والتي بدايتها كالآتي: " بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله تعالى، إني عبد الله لا عبد غيره والسلام على من أتبع الهدى"، هذه العبارات استفزت السلطات الفرنسية التي تأكدت أن لا سلطة على الشيخ بامبا سوى

سلطة الخالق عز وجل، لذلك أصدرت تقريرا في 25 أفريل 1903 يتضمن ما يلي: " إن هذا الشيخ قد أنكر علانية وبصفة غير محترمة شرعية حكومة الحاكم الأعظم كما أنه قد تسبب في فشله لأداء المهمة المنيطة به، فإن هالة الرئاسة التي كانت تحيط برئيس المنطقة (التي أحمدو بامبا أحد رعاياها) قد قذر كما تتقذر بموجبه سمعة الإدارة التي نصبته وعلى ذلك لا يمكن لنا أن نتفرج حتى تختلق عداءات مشابهة، التي قد تنازعنا أو تسيء في تنفيذ الأوامر التي يتلقاها من طرفنا إذن هناك مصلحة سياسية جادة في عدم تخاذلنا لحاكم هذه المنطقة أمام تصرفات وحركات هذا الشيخ الذي ليس إلا أحد من رعايا منطقته بغض النظر عما يتمتع به هذا الشيخ من تقدير وإجلال من وجهة نظر ديني"[28].

كما ظهرت عدة تقارير من مدراء دوائر تيفوان وتياس وكولاك مفادها أن الشيخ بامبا اشترى الأسلحة، وجمع الرجال للتحضير للحرب ضد فرنسا، وقد جاء تقرير مساعد حاكم دائرة كولاك في تاريخ 29 ماي 1903 كما يلي: "علمت أن الشيخ بامبا مباكي جمع حوالي 4 إلى 5 آلاف رجل للتحضير للحرب على فرنسا"[29]، لذلك قامت السلطات الفرنسية باعتقاله من جديد في 13 جوان 1903، وبعث للإقامة الجبرية بموريتانيا عند معلمه ومرشده الروحي الشيخ بابا سيديا بمنطقة صوت الماء Souet – El– Ma، بعد أن قضى خمس سنوات في موريتانيا عاد إلى السنغال سنة 1907، ووضع تحت الإقامة الجبرية بمنطقة تياس بمقاطعة لوغا[30] بمساحة قدرها ربع كيلو متر مربع، وقامت السلطات بتحديد عدد زواره خوفا من تجمع الأتباع، لذا نقص النشاط الدعوي للشيخ بامبا[31]، لكن هذا لم يمنع فلول المريدين من السفر إلى تياس لزيارة شيخهم.

وبسبب حسن سلوكه وتأكد الفرنسيين أن كتابات الشيخ ليس فيها ما يحارب السلطة الفرنسية في السنغال بل هي كتابات دينية لا غير لذلك قاموا بإصدار قرار

في جانفي 1912 ينهي الإقامة الجبرية، ومن هذا التاريخ بدأت فرنسا تسعى إلى استمالة مؤسس المريدية إلى جانبها وذلك بسبب الحرب العالمية الأولى التي غيرت الموقف الفرنسي، وجعلتها تتحالف مع أنصار الطريقة المريدية لحاجتها إلى الفول السوداني الذي تتحكم المريدية في إنتاجه، وتحتكر تجارته آنذاك في السنغال، حيث أنتجت المريدية مابين سنتي 1895 و1910 من 51 600 طن إلى 227 300 طن، وأثناء الحرب العالمية الأولى ازداد الإنتاج إلى أن وصل 303 067 طن، لذلك تخوفت السلطات الاستعمارية من الشيخ الذي كان يشجع أتباعه على العمل، وبما أن الولوف يولون للعمل أهمية كبيرة في حياتهم اليومية، فقد وجدت دعوة بامبا إقبال واسع بين فئات هذا المجتمع، فالعمل عامل أساس في تعاليم أحمدو بامبا، ويعتبر من أهم مبادئ الطريقة المريدية خاصة إنتاج الفول السوداني، كذلك أصبحت المريدية تتحكم كذلك في زراعة أنواع مختلقة من الحبوب بكميات كبيرة، كل هذا جعل الفرنسيين يوجهون هذه القوة الاقتصادية الجديدة لصالحهم، ومراقبة بامبا تحولت إلى محاولة استمالته ليكون شريكا اقتصاديا[32].

كما تبنى الحاكم الفرنسي ويليام بونتي William Ponty (1908–1915) سنة 1912 فكرة مهادنة أحمدو بامبا لكسب أتباعه، الذين لم يكفوا عن التجمهر حوله في منفاه بتياس، لذلك تبنت الإدارة الاستعمارية الأسلوب النفعي[33]، ورغم نفي الشيخ بامبا مرتين واضطراب العلاقات بينه وبين الفرنسيين إلا أنه لم يحمل السلاح في وجه السلطات الفرنسية،ر ومنذ البداية كان يدعو إلى الجهاد السلمي، بمعنى الجهاد بالقلم لا بالسيف، ويقول سام بوسو عبد الرحمن في هذا الصدد "الشيخ تجسيد لروح الإسلام وتعاليمه السامية، تبنى في جميع مراحل حياته مبادئ السلم واللا عنف

مجلة آفاق علمية
المجلد: 12 العدد: 02 السنة 2020
ISSN: 1112-9336
ص 106 - 124

بصورة إيجابية نافعة، وقد تجلى ذلك في كتاباته ومؤلفاته العلمية، كما استعمل الشيخ في جهاده الوسائل الأكثر فاعلية وانسجاما، ومنها إعداد الأجيال وتزويدهم بسلاح العلم ومكارم الأخلاق"[34].

وفي أواخر حياة بامبا أسس عدة مراكز، واستقر بعدة مناطق لنشر دعوته وتدريس القرآن الكريم والعلوم الإسلامية للطلبة، وفي سنة 1924 أصبحت توبة رسميا عاصمة روحية ودينية للمريدية، وقرر بامبا أن ينشئ مسجدا بها يشبه النموذج المكي، والذي سيصبح بعد موته قبلة يرتادها أتباعه، ولم يستطع بامبا إكمال بناء هذا المسجد، لأنه توفي في 19 جويلية 1927[35]، وضريحه في توبة يزوره آلاف المريدين من كل حدب وصوب في ذكرى نفيه إلى الغابون في 18 صفر من كل سنة في حج غفير يعرف بمغال[36].

2-3- التحالف

إن العلاقات بين الطريقة المريدية والاحتلال الفرنسي امتازت في البداية بالتوتر والاضطراب، لكن بعد سنة 1912 أدرك الفرنسيون أنها لا تشكل خطرا كبيرا عليهم من الناحية العسكرية على الأقل، كما استغلت فرنسا نفوذ الطريقتين الكبيرتين في السنغال التيجانية والمريدية لمراقبة إنتاج الفول السوداني في الأرياف، وكانت تربطها صلات اقتصادية مهمة مع شيوخ الطرق من أجل تطوير زراعة هذا المحصول، لأنه كان يدر أرباحا ضخمة على الخزينة الفرنسية أنداك[37].

وأثناء الحرب العالمية الأولى قامت كل الأسر الدينية والأرستقراطية المعروفة في السنغال بالمشاركة في الحرب العالمية الأولى إلى جانب القوات الفرنسية عن طريق إرسال أحد أبنائها أو أحد أتباعها، حيث أن الحاج مالك سي شيخ التيجانية قدم ابنه أحمد سي الذي توفي في معركة سالونيك في اليونان سنة 1916، كما أن الشيخ بوكنته صاحب زاوية أنجاسان القادرية قدم هو الأخر ابنه

الشيخ سيدي المختار الكنتي؛ أما مؤسس المريدية أحمدو بامبا كان قد اقترح ابنه الشيخ مامادو مصطفى امباكي، إلا أن هذا الأخير لم يتمكن من الذهاب، وتطوع مكانه الشيخ يابا ديوب أحد مريدي أحمدو بامبا[38]، كما وافق هذا الأخير على تقديم مئتي مجند للسلطات الاستعمارية رغم معارضة أتباعه من القادة والشيوخ، ووافق على إقامة مدرسة فرنسية في امباكي على نفقته، وافتتحت سنة 1912، ولقد أورد هذه المعلومات الأستاذ روحان امبي في كتاباته عن المريدية، وقام بنقده كل من الأستاذين شيخنا عبد الودود وخادم سيلا، اللذين رفضا تعامل الشيخ مع الفرنسيين من باب أن القادة الفرنسيين هم الذين اختاروا المجندين بموافقة الشيوخ، كما أن المدرسة لا وجود لها، لأن التلاميذ الذين ذكرهم الكاتب كانت أعمارهم قد تجاوزت الستين سنة آنذاك[39].

أما محمد غالاي انجاي يقول في هذا الصدد: " في الواقع أن الشيخ الخديم لم يبخل في مد يد العون والمساعدة للمستعمرين الفرنسيين في مواقف معينة مثل: مبلغ ال 500.000 فرنك قديمة الذي قدمه لفرنسا لرفع عملتها (الفرنك الفرنسي) عام 1926، وعدم اعتراضه على اشتراك مريديه في الحرب مع الفرنسيين... كما قبل سنة 1919 وسام الشرف الفرنسي – الذي كان قد اخترعه بونابرت عام 1802 بهدف مكأفاة كل من أسدى إلى فرنسا خدمة عظيمة، ولقد قبل الشيخ الوثيقة فقط بينما رفض الوسام، لأنه يحمل الصليب ودينه يرفض تقلد الصليب"[40].

كما أن الشيخ إبرا فال[41] أدرك أن السلطة السياسية لا يمكن الوصول إليها إلا بامتلاك الأموال، فشجع أتباعه على الزراعة، وباع محاصيل الفول السوداني للفرنسيين لبناء علاقات قائمة على تبادل المنافع والخدمات[42]، ومنذ سنة 1890 كان ممثلا للمريدية في سان لويس، وكان بمثابة الوسيط بين المريدية والسلطة الفرنسية، كما أنه توسط للإطلاق سراح الشيخ عند ويليام بونتي الحاكم العام

الفرنسي، وبالفعل فقد أسهمت وساطته في ذلك، ومنذ سنة 1912 عادت العلاقات الفرنسية المريدية بفضل استقرار إبراهيم فال في سان لويس مقر الإدارة الفرنسية ووصلت هذه العلاقات إلى حد أن الشيخ إبرا فال أرسل وحده 150 شاب للمشاركة في الحرب العالمية الأولى ومعهم ابنيه: الشيخ عبد اللاي فال وفالو فال الذي لقي حتفه أثناء الحرب، ومشاركة طائفة الباي فال إلى جانب القوات الفرنسية لم تكن من أجل كسب ود فرنسا، بل لأنهم تلقوا الأمر من أحمدو بامبا وهو السلطة العليا في الطريقة المريدية ولا يمكن مخالفته[43].

ويبرر الباحث السنغالي محمد غالاي أنجاي هذا الموقف الذي تبناه مؤسس المريدية وأتباعه اتجاه الفرنسيين، كونه لم يستغن عن مبادئه وقناعته السياسية، لكن الواقع السنغالي آنذاك فرض عليه أن يقوم بكل ما من شأنه تحسين الحالة المعيشية للشعب السنغالي، كذلك يجب على المسلم أن يجنح إلى السلم، إذا طالب به العدو الكافر مستدلا[44]، بقوله تعالى: (وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61) وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63))[45].

4-خاتمة :

ونستنتج في الأخير أن موقف الطريقة المريدية من الاستعمار الفرنسي في السنغال1895-1927 امتاز ببعض التباين والتناقض بمناهضة التواجد الفرنسي ومحاربته في البداية، ثم محالفته والوقوف إلى جانبه خاصة في الحرب العالمية الأولى، ولكن هذا التباين والتناقض هو بالدرجة الأولى عائد للظروف السياسية التي عرفتها منطقة السنغال، والتي تحكمت في سير العلاقات بين الطرفين، وهي التي أملئت على مؤسس المريدية مجاراة السلطة الاستعمارية آنذاك، كما أن مبدأ اللاعنف الذي دعت له المريدية جعل المقاومة المريدية سلمية، فلم يحمل مؤسسها السلاح

أو يجند الجنود، بل علم الأتباع وثقفهم للخروج بالبلاد من التخلف الذي كان سائدا في فترة الاستعمار الفرنسي بسبب الأنظمة التقليدية الأرستقراطية التي احتكرت التعليم، وسعت إلى تجهيل الطبقات الاجتماعية الدنيا وتهميشها، ويعد جهاده حركة إصلاحية دينية واقتصادية، اهتمت بنشر العلم بين الفئات الشعبية والدفع بها إلى مجال العمل الفلاحي لتطوير السنغال.

5-الهوامش

[1]-هو أحمد بن محمد بن حبيب الله بن محمد الخير الملقب بخادم الرسول والعبد الخديم ،ينتمي إلى عائلة امباكي الولوفية، ولد بقرية- امباكي باول التي أسسها جده الأكبر 1953، تعلم منذ نعومة أظافره القران الكريم والسنة النبوية واللغة والبلاغة والتصوف على يد مشايخ سنغاليين وموريتانيين، وقد سافر إلى موريتانيا وتتلمذ على يد الشيخ سيديا وأخذ عنه مبادئ الطريقة القادرية. أنظر: عائشة بومدين: الدور الاقتصادي والسياسي للطريقة المريدية في السنغال ما بين (1895 – 1970)، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2، ص 43- 49 .

[2]_محمد غالاي انجاي: الشيخ أحمد بمبا سبيل السلام، مطبوعات نادي الوعي المريدي، بروكسل،2011، ص28.

2- انجاي : الشيخ أحمد بمبا _ و ،ص 28

Cheikh Guèye: Touba la capital des mourides , IRD ÉDITION ET KARTHALA, 2002, P 37 – 38.

[4] –Jean Copans, Les marabouts de l'arachide la confrérie mouride et les paysannes du Sénégal, Le sycomore, Paris, 1980, P 77.

[5]– مباي غويي و أ.أدو بواهن : المبادرات والمقاومة الإفريقية في غرب إفريقيا في ظل السيطرة الاستعمارية 1880 – 1935 تاريخ إفريقيا العام المجلد السابع ،نضد وطبع بالمطبعة الكاثوليكية ش.م.ل ،بيروت ،لبنان ،اليونسكو ،1990 ص 128 .

[6] – المابا دياخو : قاوم في منطقة الجولوف ،وحارب الفرنسيين والقبائل الوثنية هناك ،وقد واجه الفرنسيين في معركة ب 30 نوفمبر 1867 ،وتوفي عام 1867 ،في معركة ضد قبائل السيرار ،أنظر :

Gana Fall : Les marabouts Sénégalaise et le pouvoir colonial, Revue Liens 11, December 2008 ,P 5. Francophone

[7]–مامادو لمين درامي :هو إمام من قبائل السراخولي ،حارب الوثنين و التكرور ،الذين سجنوه وعذبوه ،,أتبع مع فرنسا في البداية سياسة مناورة بمحالفتها ،و ادعائه أنه ينوي الهجوم على الإنجليز في غامبيا ،فتوسع في مناطق النفوذ الفرنسي ،وازداد أتباعه ،لكن في 1986 هجم الفرنسيون على قريته ،وأسرو عائلته ،فأعلن الحرب رسميا على فرنسا ،و واجه الفرنسيين في عدة معارك منها ،معركة كونجول ،التي انتصر فيها و واصل سيطرته على الوضع ،لذلك تحالف الفرنسيون مع أحمدو شيخو ضده ،لكن هذا الأمر ،لم يوقف انتصارات الإمامي مامادو لامين ،الذي واصل ،إلحاق الهزائم بكل من الفرنسيين ،وأتباعهم من التكرور ،ولكن في ديسمبر 1887 ،كانت المعركة الأخيرة بين الإمامي والفرنسيين ،وهي معركة توباكوتا ،ودافع الأمين بكل ما أوتي من قوة ،لكنه انهزم ففر إلى تمبكتو ،وهاجمت فرنسا تمبكتو ،فاتجه الأمين إلى منطقة نجوجو سوكوتا ،فهاجمه الفرنسيون و هزموه واصبب في فخذه ،وأعتقل كأسير ،لكنه توفي في الطريق إلى تمبوكتو ،في 12 ديسمبر 1887 ، أنظر : عبد الله عبد الرزاق إبراهيم : المسلمون والاستعمار ،سلسة كتب عالم المعرفة ،العدد 139 ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،الكويت ،يوليو 1989 ،ص 95 – 118

[8] – لات ديور : كان ملك الكايور ،تولى الحكم في سنة 1862 م ،وحارب الاستعمار الفرنسي ،بعد أن ضمت فرنسا الكايور سنة 1964وعاد ليوقع معها وعاد ليوقع معها اتفاقية 1871 والتي أصبحت بموجبها الكايور ،تحت الحماية الفرنسية ،ولكنه واجه الاستعمار الفرنسي من جديدو قتل في معركة ديخلي في 16 أكتوبر 1986 .أنظر : كي زيربو : تاريخ إفريقيا السوداء,.ترجمة : يوسف شلب الشام ,دمشق ،،القسم الثاني 1994 ، ص 731 – 734 .

Jean Copans,Op.Cit , P 77– 78.–[9]

. Cheikh Guèy,Op.Cit ,P 16–[10]

[11] – محمد المنتقى جتر : المريدية حقيقتها ومبادئها ،المحاضرة السنوية ،دائرة روض الرياحين ،طوبى ،18 صفر 1430 هـ – 14 فبراير ،2009 ،ص 8

[12]– هذه الصراعات أهلكت الحرث و النسل ،وخلفت مجاعات عديدة ،فقد ضرب في شهر نوفمبر 1868 ،مجاعة ومرض الكوليرا ،في عدة مناطق ببلاد السنغال ،منها الكايور و الوالو ،كذلك الأقاليم الواقعة في جنوب السنغال ،وذلك جراء الحروب الدامية ،وقد استغل أحمد شيخو الملقب التيجاني وهو ابن عمر طال هذه الفترة الصعبة لإيقاظ روح الجهاد ،ضد السلطات الأرستقراطية الحاكمة ،فقال من ينظم إلى جيشه ،ويساعده على محاربة الوثنين ،سينجيه الله من المجاعة والوباء. أنظر : أنجاي ، الشيخ أحمد بامبا سبيل السلام ،ص 32 .

[13] – Mamadou Diof : The Senegalese Murid trade dispora and the making of a vernacularc cosmopolitanism, Translated by : Steven Rondall, Public culture, Fall, Volum 12, Number 3, 2000, p 682

[14] – Momar Coumba Diop: confrérie mouride organisation politique et mode d ‘ implantions urbaine, Thèse de doctorat de 3e cycle, UER de psychologie et sciences sociales, Université Lyon 2 ,1980, P 39 .

[15]– Cheikh Tidiane Sy: Confrérie Sénégalaise des Mourides un essai sur l Islam au Sénégal, Présence Africaine, 1969, P108 – 109.

[16]– Donal .Cruise O ‘ Brien : Le talibé mouride la soumission dans une confrérie religieuse sénégalaise, Cahiers d’études africaine, Volume 10, Numéro 40, P 564.

[17] – C.T.Sy, Op.Cit, P 110.

[18] – Christian Coulon : Le marabout et le prince (Islam et pouvoir au Sénégal), Édition A. PEDONE, Paris, P 7.

[19]– عبد الرحمن سام بوسو: الاحتفال بذكرى خروج الشيخ أحمد بمب الى الغيبة البحرية البعد الديني و الاجتماعي ،مطبعة المعارف الجديدة ،الرباط ،2012 ،ص 8

[20] – سيلا ،المرجع السابق ،ص 139 .

[21]– P. Marty, Études sur l Islam au Sénégal, , Tome 1, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1917P 224– 225.

[22] منطقة نديمبور –N'Diambour تقع في شمال السنغال يحدها من الغرب المحيط و من الجنوب إقليم الكايور أنظر :

Sidibé .Mamady: Migrants de l 'arachide la conquête de la forêt classée de pata Casamance Sénégal, Éditions IRD, Paris, p 23

[23] –C. Tidiane Sy, Op.Cit, P 113

[24]– Coulon, Op.Cit, P 75.

[25]–P.Marty, Op.Cit, P 226 –227.

[26] – محمد غالاي أنجاي : الجدل العقيم بين الأنا والأخر في قراءة التراث الخديمي (إشكاليات التراث وآليات القراءة) ،مجلة الوعي المريدي ،نشرةدورية ، يصدرها نادي الوعي المريدي ،بروكسل – بلجيكا ،العدد الأول ،مايو 2008 ،ص 32 .

[27] – Marty, Op.Cit, p 22

[58]– محمد غالاي أنجاي : الجدل العقيم بين الأنا والأخر في قراءة التراث الخديمي ،ص 45 – 46 .

[29] – Momar Coumba Diop, Op.Cit, P 41.

[30]: لوغا تقع شمال السنغال بجنوب سان لويس أنظر – SidibéOp.Cit .p 23.M

[31]– Christian Coulon, Op.Cit, P 7.

[32] – C. Tidiane Sy, Op.Cit, p 123 – 125.

[33]– Ch. Anta Babou, Le Jihad de l 'âme Amadou Bamba et la foundation de la Mouridiyya au Sénégal 1853 – 1913,Bonnardel Régine : Saint – Louis du Sénégal : Mort ou naissance, L harmattan, 1992. , P 251 .

[34] – سام بوسو عبد الرحمن : اللاعنف في تعاليم الشيخ الخديم ،محاضرة ألقيت ضمن فعاليات الذكرى المئوية لرجوع الشيخ الخديم من منفاه في الغابون ،،دكار ،11 نوفمبر 2003 ،ص 7 – 8 .

[35]–C. Tidiane Sy, Op.Cit, P 127 – 128.

[36]– مغال باللغة الولوفية يعني تبجيل الشئ والتنويه بقدره ،وتعظيمه ،وقد كان الإتباع في البداية يسمون هذا الاحتفال بعيد الأضحى الصغير لما بينهما من الشبه ،فمنع الشيخ الخديم هذا التسمية لما يشوبها من الابتداع في الدين ،ثم أطلق عليه اسم مغال ،ويعتبر تاريخ 18 صفر بداية للمحن و المعاناة التي عرفها الشيخ خلال نفيه ،ولقد ابتدع الشيخ هذا الاحتفال شكرا لله تعالى .انظر: سام بوسو عبد الرحمن، الاحتفال بذكرى خروج الشيخ أحمد بمب إلى الغيبة البحرية البعد الديني والاجتماعي ،ص 5 – 6 .

[37] – Régine Bonnardel : Saint – Louis du Sénégal : Mort ou naissance, L harmattam, 1992, P 40

[38]– أنجاي ،أحمد بمبا سبيل السلام ،168 .

[39]– شيخنا عبد الودود وخادم سيلا : قراءة نقدية لكتابات الأستاذ روحان أمبي عن الطريقة المريدية ومؤسسها، مجلة رسالة الأزهر، مؤسسة الأزهر السنغالية، ص12 .

[40]–الشيخ أحمدو بمبا سبيل السلام، ص 168 – 169 .

[41]– هو زعيم حركة الباي فال التابعة للطريقة المريدية وأتباعها اكثر المريديين تعصبا للطريقة

[42]–C. Coulon.op.cit, p 194.

[43]– Charlotte Pézeril: Islam, mysticisme et marginalité: les Baay Faal du Sénégal, L 'Harmattan, Paris, P 90 – 92

[44]– أنجاي ،الشيخ أحمدو بمبا سبيل السلام، ص 168 .

[45]– سورة الأنفال : الآيات 61 ،62، 63 .